تقاليد الزواج واصولها النفسية

للدكتور عطية الله

— ٣ —

زواج الاغتصاب — اثاره الراهنة في مصر والعالم — الاساس النفسي لذلك — اغتصاب الزوج — زواج المساومة — زواج الموافقة — حقوق العائلة — الاختيار الفردي —

على اية قاعدة تؤسس علاقة الزواج ؟ او بالاحرى كيف يختار الرجل رفيقته ؟ ارضاؤها الشخصي ام بعد موافقة ذويها او من يهمهم امرها ؟ ان هذا على صحته ليس الا نصف الحقيقة . فثمة زواج بالموافقة ، وزواج بعدم الموافقة او زواج بالاغتصاب ، وهو زواج لا يتطلب الزوج فيه موافقة من الفتاة ولا من ابويها . وهذا بالطبع نجده اكثر شيوعاً بين الشعوب الفطرية ، او المنزوية عن الاختلاط العالمي ، كما هي الحال في اواسط آسيا او شرق اوربا او بين سكان استراليا الاصليين وفي جزائر المحيط الجنوبي

ليس الزواج بالاغتصاب في تلك الانحاء حالات شاذة ، بل هو معتبر بين سكانها وسيلة طبيعية للزواج . ومع ذلك يجب الا يتطرق الى الذهن بأن زواج الاغتصاب هو العرف السائد الذي لا محيص منهُ في تلك البقاع ، لانهُ وان كانت هنالك بواعث تدفع الى الاخذ بهِ كما سأورد بعضها بعد ، إلا ان هذه لا يمكن ان تحطم الأسس الطبيعية التي يجب ان تقوم اركان الزواج عليها

فسكان استراليا الاصليون يكونون شبه عصابات تغير على غيرها من القبائل الاخرى لاغتصاب فتاة او اكثر للزواج . وقد تنقلب هذه الغارات الى حروب تسيل فيها الدماء ، حتى ان الفتاة اذا امتنعت عن اطاعة المغير لا تنجو من عقاب بدني . وكان زواج الاغتصاب معروفاً في بلاد الاغريق ، وظل الى القرن الماضي منتشراً بين الامم الصقلبية ، بل ولا يزال باقياً الى اليوم في بعض مناطق البانيا الجبلية . وقد تكون هذه الغارات نتيجة لضرورة طارئة اذا كانت الفتيات في احدى القبائل اقل من الفتيان الذين في دور الزواج . كما انهُ يحدث غالباً ان هذه الغارات العنيفة تنتهي بتعاقد في جو من الرضاء والموافقة الصحيحة . وقد اندثرت هذه الطريقة ولاسيما في الشعوب المتحضرة الا ان هنالك بعض تقاليد تقام في خلال الزواج ، هي بمثابة آثار لزواج الاغتصاب الذي اصبح لا يتفق مع روح العصور الحديثة

فعند كثير من الشعوب الحاضرة ينشب قتال تمثيلي بين اسرة الزوج واسرة العروس ، فتهاجم الاولى دار العروس محاولة اغتصاب الزوجة

ففي بعض الجهات في مصر ، يقام مثل هذا في حفلة الزفاف ، فيعتلي الزوج في جمع من اسرته ظهور الخيل او الجمال ويهاجمون اسرة الفتاة التي تقابلهم وتمنعهم من الاقتراب من دار العروس ، فتنشب بين الجمعين معركة صورية تطلق فيها بعض المتقدفات النارية ، او تستلّ العصي والاسواط . او يحدث ان تركب الفتاة مع احد اقاربها الشبان فرساً ويهربان الى جهة نائية فتتبعها قافلة من اسرة الزوج لاغتصاب العروس . وقد لا ينتهي هذا القتال التمثيلي على هذا النحو بل قد ينقلب عنيفاً يتبادل فيه الفريقان الضربات كما يحدث في بعض جهات الهند وفي مراكش يرجم الزوج بصوب من الاحجار من اسرة الزوجة اذا جاء في طلبها

وقد تكون آثار زواج الاغتصاب اقل وضوحاً في بعض الحالات كما في انكلترا ، الاّ أن هذه التقاليد التي يراعونها بدقة تدل على ان الاساس الذي بُنِيَتْ عليه هذه التقاليد معروف الى حد ما . فقد يحدث ان الزوج حين قدومه لاخذ زوجته ، تقف في سبيله جماعة من اسرة العروس في الطريق وتسدّه بأكوام من الاحجار او الخشب لمنعه من التقدم ، الاّ بعد مفاوضات صورية بين الفريقين تنتهي بعد ان يدفع الزوج ضريبة خاصة

ولعل دفع الضريبة معروف في مصر ولكن بصورة اخرى وهو ان الفتاة ليلة الزفاف تمتنع عن مخاطبة رفيقها الجديد عند تقديمه اليها الاّ بعد دفع ضريبة مالية او هدية ذات قيمة !

وهنالك مظاهر اخرى قد نرجعها الى هذا الاساس مثال ذلك قضاء شهر العسل بعيداً عن بلد الاسرة فهذا يمثل فكرة هرب الزوج بعروسه في زواج الاغتصاب

* * *

وهنا يجدر بنا ان نتساءل عن الاساس البيكولوجي لتلك ثم عن غيره من الاسس. وقد يكون تمنع الفتاة او العائلة مظهراً للطبيعة النسوية القوية التي نعرفها «بالدلال» او «التمنع» لان موقف الانثى في العلاقات الجنسية سلبيٌّ دائماً ؛ بمعنى انهُ ليس عليها ان تبحث عن الرفيق مهما كانت احوالها الخاصة ؛ بل يكفي ان تهيء الظروف المناسبة للبحث والطلب . وهذا ما نراه في المملكة الحيوانية . ولا ينقلب هذا الموقف السلبي عند المرأة الى ضدّه (كما يقرر علماء النفس) الا في حالتي الانحطاط أو الشذوذ العقلي . ومع ذلك فاننا نجد ان روح التمنع أو الدلال تبدو كذلك حتى في البغايا[1]

والتمنع من جانب العروس قد تتخذه الفتاة أو اسرتها دليلاً على عفتها وطهارتها ، لان هنالك شعور بشيء من التقزز الى العلاقة الجنسية لكثرة ما أحيطت به من الاسرار والنظم التقليدية . اذ قد يحدث عن بعض الشعوب ، ان يحضر الزوج الجديد الى دار الفتاة

(١) راجع Waytt Tilly, The Evolution of Consciousness

طالباً ايها فترفض أو تهرب الى بعض نواحي البيت فيبحث عنها ، حتى اذا وجدها اخذها من شعرها وجرها قسراً الى داره على مرأى من اهلها الذين يفرض عليهم بحكم التقاليد عدم التداخل في امر لا يخصهم

وهنالك ظاهرة اخرى توضح هذه الطبيعة النسوية ، طبيعة التمنع ، وهي بكاء العروس ليلة الزفاف . وبعض الجماعات تعلق شأناً كبيراً بهذا البكاء . فكلما كان نحيب العروس شديداً ، دل ذلك على عفافها ، وعلى اخلاصها وحبها لعائلتها . ولكنني اعتقد ايضاً ان البكاء دليل الخوف ، خوف الفتاة وفزعها من الحياة الجديدة التي يحوطها في نظرها ، شيء من الغموض ، فهي مع شوقها السابق لان تكون زوجة وان تكون اماً ، تشعر حينما تخطو آخر خطوة لتوديع حياتها السابقة ، بالرهبة والقلق فلا تمالك عن البكاء . ويعتقد بعضهم ان شدة بكاء الفتاة في ليلة زفافها مقياس لسعادتها في حياتها الزوجية

وهنالك اسباب اخرى لاتخاذ الاغتصاب وسيلة للزواج وهو ان العروس وعائلتها تتعرف بهذه الطريقة مبلغ شجاعة الزوج وقوة عائلته . وقد يحدث ايضاً ان والد العروس يهرب في كثير من الاحيان يوم زفاف ابنته ، وقد رأيت بنفسي بعض هؤلاء الآباء الهاربين مختبئين في زوايا غير مطروقة بضعة ايام ممتنعين فيها عن رؤية احد من اهليهم أو معارفهم

* * *

وثمة زواج باغتصاب الزوج على مثال الزواج باغتصاب الزوجة وان كان هذا نادراً . ففي أسام مثلاً يخرج جماعة من اقارب العروس الى بيت الزوج طالبين اياه ولكنه يتمنع ويهرب الى احد زوايا المنزل حيث يتبعونه فيجدونه في الحرب الى الغابة أو إلى الجبال حتى يعييه التعب ، محاولين أثناء ذلك اقناعه بالذهاب معهم واغراءه بالوعود والهدايا فاذا امعن في الرفض ، اطبقوا عليه وأتوا به الى بركة ماء فيلقونه فيها مراراً حتى يعلن موافقته فيأخذونه ظافرين الى بيت العروس

* * *

وهنا نرجع الى الوسيلة الاخرى للزواج ونعني التعاقد بعد رضاء الطرفين . وفي استعمال لفظة « الطرفين » نوع من الايهام ، فقد نقصد بذلك الرجل والفتاة اللذين يرغبان في الزواج وقد نقصد بعض افراد اسرة كل منهما ، وكذلك لا غنى عن رضاء المجتمع من الشأن في اتمام هذا العقد

والزواج بالموافقة وهو السائد بيننا يتطلب موافقة كل هؤلاء أو الجانب الاكبر منهم . فرضاء الاب عن زواج ابنته يكاد يكون محتماً عند جميع الشعوب وان كان شأن هذا الرضاء يختلف باختلاف هذه الشعوب ، ففي الهند حيث يتم هذا التعاقد والزوجان في طور الطفولة نجد الاب مسيطراً على هذا التعاقد ، فهو يختار لفتاته من يريد بلا منازع . وقد تكون سلطة الاب كبيرة حتى انهُ في بعض الشعوب يملك الحق في بيع ابنته

وقد حدثني صديق زار اعالي السودان بان الزواج هناك بالمبادلة والمساومة المادية، فالزوج او الاب يقدر قيمة الفتاة التي يرغب في تزويجها ، ويكون هذا الثمن عادة عدداً من الحراب او الادوات ذات الفائدة يقدمها الزوج لحميه . ومن المتفق عليه انهُ اذا ما توفيت الزوجة بعد ذلك فللزوج الحق في ان يسترجع هذا الثمن او بعضه من والد الفتاة

فالاساس في الزواج بين هذه الشعوب اقتصادي محض، ذلك ان الاب يفقد بالزواج فرداً من افراد أسرته وهو الفتاة التي قد تكون عوناً لهُ في عمله بمشاركتها الام في القيام بأعباء المنزل او غير ذلك فلا عجب ان يعوضه الزوج شيئاً في سبيل خسارته

وأخذُ رأي الفتاة في الزواج قد يكون معروفاً عند الشعوب المنحطة اكثر منهُ بين الشعوب التي أخذت قسطاً ضئيلاً من الحضارة

أما الاساس النفسي الذي تبنى عليه حقوق الاب ، فهو واجب البنوة ، الذي يثبت في نفس الصبي أو الفتاة بتكرار اطاعة رب الاسرة ومحبته وتقديره ، والايمان بحسن سعيه

* * *

ومجمل القول ان الفتاة تكون عادة تحت تصرف والدها حتى الزواج، عند كثير من الشعوب او الى سن محددة كما هي الحال في الوقت الحاضر ، وهذه السن وهي سن الرشد تختلف باختلاف الشعوب ، والقانون يحددها في جميع الحالات . فاذا تمَّ تعاقد بعد ذلك فالقانون او الشرع يجيزانه ، وان كان ينظر اليه في بعض الحالات نظرة مريبة من جانب الجماعة ، فيتطلب حينئذ رضاء الاب ولو في الظاهر فقط . وعند بعض الطوائف المسيحية يمتنع رجال الدين عن اتمام العقد في الكنيسة اذا أصرّ الأب على المعارضة

إلاّ انهُ بانتشار تعليم المرأة صار للرضاء الفردي بين الزوج والزوجة شأن اكبر تتلاشى عنده ارادة العائلة . ولا مغالطة في ذلك فالزواج نوع من الصداقة . ومن الواجب ان يكون حق الاختيار لمكونّي هذه الرابطة . ولكن يجب الا ننسى ان احكام الشباب اقرب الى التهور لا سيما للذين لم تتح لهم فرصة الاختلاط . فالفتى قد يقع في هوى كل فتاة تصادفه بلا تدقيق مدفوعاً بغريزته الجنسية ، التي تكون في بادىء الامر غامضة الغرض غير محددة . ولذلك قد لا يكون اختياره موفقاً سعيداً

احمد عطية الله

« للبحث بقية » مدرس التربية بمعلمات حلوان

محتويات المقال التالي

الزواج الفردي — الحب والزواج — تعدد الزوجات — الاسباب الداعية اليه — تعدد الازواج — الزواج الجمعي — زواج المبادلة — المهر وتطوره — حفلات الزفاف